

الأمثال في القرآن الكريم

(128) استدلالهم بأنَّ كيفية خلق المسيح يضاها كيفية خلق آدم. حيث إنَّ آدم خلق من تراب بلا أب وأُمَّ، فإذا كان هذا أمراً ممكناً، فمثله المسيح حيث ولد من أُمَّ بلا أب فهو أهون بالامكان. وبعبارة أُخرى: إنَّ المسيح مثل آدم في أحد الطرفين، ويكفي في المماثلة المشاركة في بعض الأوصاف، ففي الحقيقة هو من قبيل تشبيه الغريب بالآخر ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة الشبهة. إنَّ من الأسئلة المثارة حول قوله سبحانه: (ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هو إنَّ النسب أن يقول: "ثم قال له كن فكان" فلماذا قال: (فيكون) لأنَّ أمره سبحانه بالتحقق أمر يلزم تحقق الشيء دفعة؟. والجواب إنَّه وضع المضارع مكان الماضي وهو أمر جائز، والنكته فيه هي تصوير الحالة الماضية فإنَّ تكون آدم كان أمراً تدريجياً لا أمراً دفعياً. وبعبارة أُخرى: إنَّ قوله: (كن) وإن كان دالاً على انتفاء التدرج ولكنَّه بالنسبة إليه سبحانه، وأمَّا بالنسبة إلى المخلوق فهو على قسمين: قسم يكون فاقداً له كالنفوس والعقول الكلية، وقسم يكون أمراً تدريجياً حاصلًا بالنسبة إلى أسبابها التدريجية، فإذا لوحظ الشيء بالقياس إليه تعالى فلا تدرج هناك ولا مهلة – لانتفاء الزمان والحركة في المقام الربوبي، ولذا قال سبحانه: (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) (1) وأمَّا إذا لوحظ بالقياس إلى وجود الممكن وأسبابه فالتدرج أمر متحقق، وبالجمله فقوله (فيكون) ناظر إلى الحالة الماضية. (2) وهناك وجه آخر ذكره المحقق البلاغي عند تفسير قوله سبحانه: (بَدِيعُ _____ 1 - القمر : 50. 2 - الميزان: 3|212؛ المنار: 3|319).